الخدمات الطبية والتغلغل الاستعماري في المغرب قبل سنة 1912

Imperial Officinal Service in Morocco before 1912

عفاف بنحمزة: طالبة باحثة في التاريخ المعاصر، جامعة محمد الخامس؛ الرباط؛ المملكة المغربية.

Afaf Benhamza: Researcher student in contemporary history, Mohammed V University, Rabat, Morocco.

الملخص:

تقدم المقالة نبذة عن مدى تأثير أوضاع المغرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتدهورة خلال الربع الأخير من القرن 19م على أوضاع رعاياها الصحية، وكيف ساهمت هذه الأوضاع الصحية في تسهيل عملية التغلغل الأوربي، وجعلت من استسلام المغرب لهذا التغلغل بكل جنسياته وأشكاله سهلا، انتهى بالاستعمار، بعدَ فشلِ محاولات الإصلاح التي أهملت القطاع الصحي. وفي هذا الإطار تدرج المقالة أمثلة تبين ملابسات وحيثيات قبول المخزن المغربي وتعامل المغاربة مع المساعدات الطبية والغذائية المقدمة لهما من الجانب الأوربي والتي ما فتئت أن ساعدتهما على تجاوز المحنة الصحية، بطرق عصرية، ولكن ثمن ذلك العلاج والمساعدات كانت له غايتان في تلك الفترة وهما التمهيد للاستعمار من جهة، ثم التبشير من جهة أخرى، ولكن هذه الغاية الأخيرة باءت بالفشل وتمكن الطب من أن يمهد للاستعمار ويعبد طريقه عن طريق تزويده بالمعلومات الكافية عن الأوضاع الداخلية للمغرب والمغاربة.

الكلمات المفتاحية: الطب وطرق العلاج في المغرب، القرن 19م، الأمراض والأوبئة، الأطباء الأجانب، الطبيب "روبرت كيير".

Abstract:

The article details the bad circumstances of Morocco during the late of the nineteenth century. Morocco surffered a lot politically, economically and socially. This last is considered the most important one as other European countries used to give the hand of help which cover many things such as the intention to invade and to preach. All of these is due to the failure of the Moroccan store to improve those fields so that it seemed so easy to the European countries to do what they want as long as their help got accepted and welcomed.

keywords: Medicine and recovery in Morocco , nineteenth century, Disease and epidemic, foreign doctor, Robert Keer.

المقدمة:

عانى المغرب خلال القرن التاسع عشر من ويلات الحروب والصراعات الداخلية مما جعله يتكبد الخسائر الجسيمة ماديا ومعنويا وخاصة على المستوى الصحي، لأن الحروب لا تخلف إلا الدمار والحرمان مما يسهل ظهور الأمراض المعدية الفتاكة على رأسها الطاعون والتوفيس والجدري، مما خلف عددا من الضحايا بشكل مستمر [1]، وهذا ما اضطر المخزن باستمرار إلى طلب مساعدات أوروبية انحصرت غالبا في القمح والأطباء لنجدة المغاربة من ويلات الوضعية الصحية المزرية [2]. فالمغرب لم يكن يتوفر قبل مجيء الفرنسيين على جهازٍ لحفظ الصحة أو إدارة تتعهد الناس بالعلاج والتطبيب، بل ظلت الأوبئة والأمراض تعيث في أنحاء البلاد وتذهب بالكثير من سكانها[3]، خاصة الأطفال الذين عانوا باستمرار من أمراض صعبة وفتاكة كما عانوا من قلة الوعي بخطورة الأوبئة والأمراض المحدقة بهم وبضرورة الوقاية والعلاج فمثلا انتشر الفتق والرمد بشكل كبير صعب احتواؤه [4]. رغم محاولات المخزن والأطباء المغاربة، حيث وُجِدَ بالمغرب أطباء طبقت شهرتهم الأفاق [5]، لكن طرق دراستهم واشتغالهم بعد تخرجهم من جامعة القرويين كانت متجاوزة في جوانب كثيرة مع تطور الطب والصيدلة والتشريح خلال القرن التاسع عشر [6]، هذا بالإضافة إلى تعامل المغاربة مع التطبيب وطرق العلاج، التي كان تغيب باستمرار دور الطب والطبيب وتستند إلى ممارسات علاجية متنوعة ومتعددة في غالبيتها كانت طرقا تقليدية وبسيطة لم تستطع الوقوف في وجه أوبئة القرن 19م الفتاكة.

[1] Mohamed Ghoti, Histoire de la médecine au Maroc le XX siècle (1896-1994), Imprimerie Idéale, Casablanca, 1995, p 15.

[2] Driss. Moussaoui et autres, Histoire de la médecine au Maroc pendant le protectorat, contribution dans Histoire de la médecine au Maroc et dans les pays arabes et musulmans,1ére édition, Imprimerie Najah el Jadida, Casablanca,1995, p71.

[3] بوجمعة رويان، الطب الكولولياني الفرنسي في المغرب (1912 - 1945)، مطابع نت، الرباط، 2013، ص80.

[4] Emily. Keene, Histoire de ma vie, publication de Gremenord, imprimerie Altopress, Tanger, 2001, p135.

[5] بوجمعة رويان، مرجع سابق، ص 80.

[6] أحمد المكاوي، الدور الإختراقي و الاستعماري للطبابة الأوربية في المغرب، منشورات الزمن، الرباط، 2009، ص 40 - 42.

إشكالية الدراسة:

- كيف تعامل المغاربة مع الطب وطرق العلاج العصرية؟ وما هي بصمات الأطباء الأجانب بالمغرب؟ وما كانت نواياهم الحقيقية إزاء المغاربة من خلال تجربة الطبيب الأسكتلندي **"روبرت كيير"؟**

منهجية الدراسة:

أنجزت هذه الدراسة بالاستناد إلى المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي تناولت الموضوع، إما بشكل مباشر أو بتقديم معلومات مهمة دعمت الدراسة وأغنتها ولا شك.

أهمية الدراسة:

تندرج هذه الدراسة ضمن المساهمات المقدمة من طرف ثلة من الباحثين المغاربة حول تاريخ المغرب المعاصر، وخاصة تلك الفترة المرتبطة بمقدمات فرض الحمايتين الفرنسية والإسبانية على المغرب، مع التركيز على التاريخ الاجتماعي، وخاصة تاريخ الأوبئة والأمراض التي نخرت أجساد المغاربة خلال الربع الأخير من القرن 19م، تلك الفترة التي كانت من مسببات ضعف المغرب وتمهيده للاستعمار.

هدف الدراسة:

تبيان جزء بسيط من الأوضاع الداخلية للمغرب قبل فرض الحماية عليه، تلك الأوضاع المزرية في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والمتأزمة على المستوى الصحي، والوقوف عند حدود مقاومة المغاربة للأوبئة والأمراض بطرقهم الخاصة، وتوضيح تعاملهم مع الخدمات الطبية المقدمة لهم من طرف الأجانب، والتأكيد على استغلال -هذا الأخير- لأوضاعهم الحرجة ليحقق مآربه الاستعمارية، وحتى التبشيرية.

I. تعامل المغاربة مع الطب وطرق العلاج العصرية:

كان الطب في المغرب منحصرا في نفق الشعوذة والسحر والتداوي بالرقي تشبثا بالوازع الديني [1]، حيث انحصرت طرق العلاج لدى المغاربة في زيارة الأضرحة وضمخ جباه المحمومين بأدهان النباتات ونقائعها، أو لف رؤوس المرضى بعصائب من أوراق الأشجار. ولئن حذق بعض الأطباء في إزالة الغشاوة أو جبر الكسور أو دمل الجراح، فإن ذلك كان يتم بطرق أبعد مما يتطلبه

[1] Mustapha Akhmisse, Histoire de la médecine au Maroc des origines à l'avènement du protectorat, Edition de fondation d'Hassan II, Casablanca, 2013, p33.

العلاج العصري من آليات التعقيم ووسائل المتابعة [1] وظل كثير من الناس يختارون التداوي ببعض الأعشاب الطبية، حيث سجلت أكثر ما من مرة فعاليتها في علاج أمراض مختلفة، كما اختار البعض الآخر زيارة بعض حامات المياه الساخنة المتخصصة في علاج أمراض متنوعة على رأسها الأمراض الجلدية خاصة حامة **"مولاي يعقوب"** القريبة من مدينة فاس. والصنف الآخر فضل التبرك بعلاج الشرفاء، مثلا: شرفاء **"واد دادس"** الواقع بجنوب الأطلس الكبير [2]. والبعض الآخر اختار تعليق أنواع من التمائم وصنف آخر اختار التداوي بالرقي، تساعدهم في ذلك نفسية مهيأة مسبقا لتقبل هذا النوع من العلاجات والتفاعل معه [3]، فالمغاربة لطالما آمنوا بدور الوازع الديني في حل جميع مشاكلهم الشخصية والاجتماعية والاقتصادية وعلى رأسها المشاكل الصحية، فجل الطرق العلاجية السابقة الذكر استندت بالدرجة الأولى إلى إعمال الصدق والإيمان والنية السليمة قبل البدء في أي نوع من أنواع العلاجات، فرغم بساطتها لكنها كانت تؤتي أكلها أحيانا. لكن تلك النتائج البسيطة لم تكن كافية في ظل الوضعية الصحية الموجعة والمتأزمة للمغاربة، لذلك أضحى الاعتماد على الخدمات الطبية الأوربية خلال القرن التاسع عشر وخاصة أواخره، أمرا لا يمكن تفاديه بحكم الحاجة الماسة إليها وغياب بديل مغربي حقيقي [4]. والتجأ المغاربة إلى الطب الأوربي العصري الحديث استجابة لنداء الحاجة والمرض وقلة الحيلة وآهات الآلام من جهة، وكذلك نظرا لعجز المخزن المغربي عن تلبية احتياجات المغارب الطبية، من مستشفيات وطاقة استيعابية وأسرة ومعدات وأجهزة وآلات طبية، بالإضافة إلى افتقاره الكبير للأطقم الطبية والتمريضية المتعلمة على الطريقة العصرية الحديثة، وكذا عجزه عن التعامل مع ظرفية أوبئة القرن 19 الفتاكة من جهة ثانية؛ لكن لجوء المغاربة للطب الأوربي المتطور لم يسلم من تقديم "البسملة" والتشبث بالتوكل والأخذ بالأسباب وبالأقدار التي قادت الأطباء الأوربيين من انجلترا واسكتلندا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا وغيرها من البلدان الأوربية الأخرى إلى المغرب لخدمتهم في أوقاتهم الحرجة والصعبة، ولتخفيف آلامهم، ومداواة جروحهم ومنحهم الأدوية، وتلقيحهم ضد الأمراض والأوبئة، التي لم يكن بُدًّا من اتقاء شرها وشراستها التي فتكت بالجميع، ذكورا وإناثا، أطفالا وشيوخا أغنياء وفقراء.

[1] بوجمعة رويان، مرجع سابق، ص 160.

[2] Walter Burton Harris, Le Maroc disparu, traduit de l'anglais par Paul Odinot, édition dar el aman, Rabat, 2011, p326 - 327.

[3] بوجمعة رويان، مرجع سابق، ص 160.

[4] أحمد المكاوي، مرجع سابق، ص 40.

تدخل الأطباء الأجانب في المغرب

كانت محاولات المخزن المغربي لحل أزمات المجاعات متواضعة، نظرا لأن ميزانية البلاد أصيبت بالإفلاس خلال القرن التاسع عشر، جراء التكالب الاستعماري وأصبحت عزلاء أمام الكوارث الطبيعية [1]، كما عجز المخزن عن مجابهة الأوبئة والأمراض الفتاكة، ويمكن الإشارة أيضا إلى أن محاولات المخزن المتواضعة فيما يخص التطبيب كانت بدافع إقبال المغاربة على التداوي التقليدي والبسيط، مما خفف من مهمة المخزن. لكن مع تردي الأوضاع الصحية أضحى المخزن المغربي يرخص لأطباء أو متظاهرين بالتطبيب بممارسة الطبابة، لاسيما خلال تفشي الأوبئة و يتعاقد مع أطباء أوربيين قصد علاج المغاربة و الأجانب على حد سواء [2]، بعدما أسند للقناصل الأوربيين حق الإشراف على تنفيذ الإجراءات الصحية بشكل دوري على عهد السلطان "عبد الرحمان بن هشام" قاموا بإعداد قانون تأسيسي للمجلس الصحي سنة 1840م يُخَوِّلُ هذا القانون لممثلي الدول الأوربية السهر على سلامة الصحة العمومية في شواطئ المملكة، وإصدار جميع القوانين واتخاذ جميع التدابير لتحقيق هذه الغاية، وبذلك تكرس حكم الهيئة القنصلية في مراقبة التدابير الصحية في المغرب و توجيهها أحيانا، بعيدا عن تأدية رسالة الطب النبيلة، نحو خدمة مصالحها [3]. وذلك بتكليف عدد من الأطباء برصد الأوضاع الداخلية في المغرب وتتبع التفاصيل اليومية لحياة المغاربة تمهيدا لسرعة احتواء البلاد وتنفيذ استعماره، وهناك عدد آخر من الأطباء اختار استغلال رسالة مهنته الإنسانية النبيلة لتحقيق غاية التبشير بالمسيحية، في صفوف غير المسيحيين، خاصة بين المسلمين واليهود، وبين هذا وذاك، كان المغرب حقل تجارب لكل الاحتمالات والاستراتيجيات الأوربية الاستعمارية، واستجاب المغربي لنداء التطبيب الأوربي بدافع المرض والضعف وغياب البديل وقصور الطب الشعبي التقليدي عن مواكبة تطور الأمراض وفتك الأوبئة، كما كان المغربي مستعدا، بفطرة أجداده القدامى، لاستضافة الأجنبي واطلاعه على جوانب الحياة المغربية، بمختلف حيثياتها، وفي جل مناسباتها واحتفالاتها.

ووفد على المغرب خلال أواخر القرن التاسع عشر عدد كبير من البعثات الطبية بكفاءات عالية قادرة على تقديم النصائح والعلاجات الشافية للمغاربة [4]، قدمت هذه البعثات في مدن فاس ومراكش

[1] محمد الأمين البزاز، عمليات الإغاثة المخزنية خلال مجاعات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ضمن دراسات تاريخية مهداة إلى الفقيد جرمان عياش، ط 1، منشورات كلية الآداب الرباط، 1994، ص 143 - 144.

[2] أحمد المكاوي، مرجع سابق، ص 91 - 92.

[3] أحمد المكاوي، مرجع سابق، ص 52 - 53.

[4] Emily Keene, Histoire de ma vie..., op, cit, p 132.

خدمات جيدة ومنظمة [1]. كما امتد استقرار الأطباء الأوروبيين إلى مدن أخرى كـ " الدار البيضاء والجديدة وتطوان والرباط وآسفي" ثم إلى بعض الحواضر الداخلية كـ "مكناس والقصر الكبير" وفي ارتباط بهذا الامتداد ظهرت مرافق وممارسات وقائية وعلاجية جديدة لم تكن معروفة مثل التلقيح والرضاعة الاصطناعية وفتح الصيدليات [2]، ولقد استطاع هؤلاء الأطباء مع اختلاف جنسياتهم وديانتهم كسب ثقة المغاربة، حيث مثل حضور الطبيب لوحده دون تناول الأدوية علاجا كافيا وشافيا بالنسبة لعقلية المغربي البسيط [3]. وبساطة المغربي وارتفاع أميته وقلة اطلاعه، وكذلك ثقته في إجراءات المخزن واختياراته في تلك المرحلة، سهلت مهمة الطبيب وجعلت جهوده تبدو جبارة ومبهرة في أعين المغربي آنذاك.

وقد مارس عدد من الأطباء مهنتهم بكل ضمير وإنسانية بعيدا عن التبشير وعن التجسس وكتابة التقارير لصالح التغلغل الاستعماري، وعن عمليات رصد و تسجيل أوضاع و تحركات المغاربة؛ ومن بين أولئك الذين اختاروا الاستجابة لرسالة الطب الإنسانية فقط، نجد الدكتور الفرنسي **"بيير أندريو"**(Pierre Andrieu) الذي قَدِمَ إلى المغرب عام 1886م، وهو يحمل مشروعا لجلب الماء إلى مدينة طنجة، واختار بالتالي مهنة التطبيب إلى جانب مهمة التطوع والمشاركة في الأعمال الخيرية؛ ورافقه في مهماته تلك، من الأطباء الألمان، الطبيب **"أدولف دوبيرت"** (Adolphe Dubert) وهو طبيب البحرية البروسية، الذي سكن المدينة في أكتوبر 1880م ومارس الطب فيها إلى سنة 1889م [4]، واستطاع أن يبصم عمله الإنساني ومهمته العلاجية ببصمة الفخر والاعتزاز بعيدا عن خدمة أي أغراض دينية أو طموح سياسة.

وهناك من الأطباء الأجانب، من اختار خيانة ثقة المغاربة والعمل على استغلال تنقلاته في ربوع البلاد بغرض تقديم العلاجات لجمع المعلومات والأخبار، ثم كتابة التقارير وإرسالها إلى بلاده مرفقة بخرائط توضيحية لتفاصيل مناطق البلاد [5]، وهناك من انتحل صفة طبيب للتنقل بأريحية في ربوع المغرب، والتقاط أخبارها، وتجدر الإشارة هنا إلى نموذج الضابط العسكري الإسباني الذي قَدِمَ إلى مدينة تطوان في مهمة لتدريب المخزن المغربي، نظرا لكفاءته بالدرجة الأولى باللغة العربية

[1] Walter Burton Harris, Le Maroc disparu..., op, cit, p 323.

[2] أحمد المكاوي، مرجع سابق، ص 83.

[3] Walter Burton Harris, Le Maroc disparu..., op, cit, p 323.

[4] عبد الاله لغزاوي، مسيرة الطب بالمغرب وازدهارها على عهد العلويين من زمن البداية إلى عشية الحماية، مجلة دعوة الحق، عدد 402، يوليوز 2012، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص 109.

[5] M .Ghoti, Histoire de la médecine au Maroc le XX siècle..., op, cit, p16.

فاستغل منصبه ومقامه لغرض التجسس [1]. وقد استطاع هذا الصنف من الأطباء الجواسيس النجاح في مهمتهم التجسسية بشكل كبير، نظرا لسرعة انفتاح المغاربة على الآخر الأجنبي وتزويده بأدق التفاصيل عن حياتهم بكل أريحية وبثقة كبرى، وتقاسم أهم لحظات حياتهم ومناسباتهم المهمة والغالية معه، وكذلك الجهر بمشاكلهم وصعوبات حياتهم في حضور الأجنبي، دونما حرج أو خشية، بالإضافة إلى ذلك، فالمغاربة كانوا يتسابقون بينهم على استضافة الأجنبي في منازلهم والاهتمام بتفاصيل كرم الضيافة، والحرص على توفير سبل الراحة له.

أما الصنف الآخر من الأطباء الأجانب، فقد اختار استغلال مهنته بغرض التبشير، وهي خيانة لثقة المغاربة بشكل آخر، في محاولات لصد المغاربة عن دينهم، وهو ما قامت به البعثات التبشيرية المتنوعة الإنجليزية والأمريكية وغيرها [2]؛ فمثلا، انطلاقا من سنة 1884م أسس البروتستانتيون مستشفى بطنجة، وبالمدينة ذاتها، أنشأ الفرنسيسكان مستشفى آخر سنة 1888م، وبنى المبشرون البروتستانتيون مصحتين في كل من الدار البيضاء ومراكش تحتوي كل واحدة منهما على سريرين أو ثلاثة، وكذلك في كل من مدينتي الصويرة وفاس [3]. وما ميز هذا الصنف من الأطباء المبشرين هو تشبثهم بالديانة المسيحية، واعتبار مهمتهم الطبية من صلب تعاليم الديانة المسيحية وما دعت إليه تعاليمها، من قبيل تخفيف الآلام والأوجاع عن المرضى والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين، والاعتناء بجميع المرضى، دون تمييز في الدين أو العرق أو الجنس، إلى درجة اعتبر بعض من الأطباء أن إنجاح نشر المسيحية أهم بكثير من إنجاح مهمة الطب؛ وتوظيف التقنيات والأساليب العلاجية ضروري وفرصة سانحة لإقناع المرضى بتقبل المسيحية واطلاعهم أثناء العلاج بمميزات المسيحية وتعاليمها وأفضالها على معتنقيها، ومحاولة إيصال فكرة اعتبار اعتناق المسيحية شبيهة براحة التخلص من آلام المرض والوجع، وكلما طالت مدة العلاج زادت فرص الإقناع، كما ظن المبشرون؛ ومن الأطباء الذين استخدموا الخدمات الصحية وسيلة للتبشير، الطبيب الاسكتلندي **"روبرت كيير"**(Robert Kerr).

تجربة روبرت كيير في المغرب

عمل **"كيير"** لصالح البعثة الإنجليزية (England presbyterian Church mission) لمدة سبع سنوات ابتداءً من سنة 1886م، ولقد نشطت هذه البعثة التي كان ممثلا لها، وربطت علاقات

[1] Leonhard .Karow, Neuf années au service du Maroc (1900 - 1908), traduction et notes de Monique Miège et Jean-Louis. Miège, éditions la porte, Rabat, 1998, p238.

[2] أحمد المكاوي، مرجع سابق، ص 74.

[3] عبد الاله لغزاوي، مرجع سابق، ص 108.

مع يهود فاس ودمنات والجنوب المغربي، وأدى مهام التبشير بمساعدة سوريين من عائلات "عيسى فرح ولطيف وسليمان وأزرد" لأنه كان في حاجة ماسة إلى اللغة العربية لتسهيل عملية التواصل مع المغاربة[1].

سجل **"كيير"** خلال عمله في هذه البعثة يومياته التي دون فيها كل ما عاشه من مواقف وأحداث ووقائع في المغرب، وأيضا كل ما اعترضه من عراقيل وصعاب طيلة مدة عمله لصالح هذه البعثة البروتستانتية، وجمعها في كتاب حمل اسم "عمل الرائد في المغرب"(Pioneering) in Morocco نُشِرَ بتاريخ 1894م.

سجل في كتابه كُلَّ ما اعترضه من صعوبات ومن ضمنها الصعوبة في إيجاد منزل للإقامة فيه، ووصف الحصول على منزلٍ في المغرب قائلا: "إن الوقت اللازم لاستئجار منزل في المغرب لا يصدق، فهو كالوقت اللازم لتمرير قانون في البرلمان" [2]، وفي هذا الإطار أشار **"كيير"** إلى دور الضغوط الدبلوماسية على المغرب في حصوله على منزل إقامته، حيث لولا تدخل القنصل البريطاني على حد قوله، لما حصل على منزل، ولقد رافقه في المنزل عامل مغربي يخدمه ويلبي حاجياته.

سجل **"كيير"** في كتابه أيضا، عن أيام انتشار داء الجذري سنة 1888م، بين شهري يونيو ويوليوز، وقد قدر عدد المصابين بحوالي 1000 شخص، توفوا على إثر مضاعفات المرض، كما أنه قام بعدة جولات هدفها حقن الأطفال الصغار، ومن بينهم أطفال يهود مدينتي سلا والرباط. وكتب كثيرا عن عملية التلقيح وعن كيف تعامل المغاربة مع التلقيح ومع أخذ الحقن، ووصف حيثيات يوميات التلقيح، ومن بين ما سجل عن هذا الموضوع: " كان الناس يخافون من أخذ التلقيح على يد طبيب مسيحي، لأن بعض الخرافات المنتشرة تقول بأن حقنة الطبيب يضيف إليها من دمه، ومن حقنها يصبح بدوره مسيحيا" [3].

أشار **"كيير"** إلى معتقدات المغاربة الكثيرة ووصفها "بالخرافات" ولكن تلك المعتقدات التي تحدث عنها كانت سلاحا في وجه التبشير، التي اعتمده الأوربيون مستغلين ظروف المغرب القاهرة خلال القرن التاسع عشر، وكان تشبث المغاربة بالعادات وحرصهم على اتباع التقاليد مناعة قوية في

[1] بلقاسم الحناشي، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 19م، منشورات زغوان تونس،1989، ص 107.

[2] Robert Kerr, pioneering in Morocco, edition printed by hazel, London and Elysburg, 1894, p32.

[3] Robert Kerr, Pioneering in Morocco…, op, cit, p 86.

وجه تقبل محاولات التبشير وأدواته ووسائله المتنوعة، وعلى رأسها توظيف الطب وطرق العلاج للتقرب من المريض ومحاولة استغلال حاجته وضعف قواه للتأثير على إيمانه ومحاولة زعزعة قناعاته، ومحاولة إقناعه بجوهر المسيحية ودورها في خلاص روحه وبدنه من آهات المرض.

ولقد تكلف الطبيب **"كيير"** مستغلا مهنته في إنجاز مهمتين في آن واحد، الأولى: هي التبشير و الثانية: كانت استطلاع أوضاع المغرب الداخلية، وكان بالتالي من نماذج الأطباء الذين جمعوا بين ثلاث مهام في آن واحد، الطب والتبشير والتجسس لصالح التغلغل الاستعماري ولقد أشار في كتابه إلى أمر التجسس، حينما ذكر تفاصيل أسئلته وفضوله الذي كان يتحرى بهما عن أخبار القصر من أصدقائه الأطباء في البعثات الأخرى، ومن بينهم الطبيب **"تشرشر"**(Churcher) الذي كان يعمل لصالح بعثة شمال إفريقيا التبشيرية (North Africa Mission) [1]؛ لكن التبشير كان غاية الطبيب **"كيير"** الأهم، ولم يكن يستويه التجسس لصالح الدول الاستعمارية، كما أن مهنة الطب اعتبرها وسيلة فعالة لخدمة نواياه التبشيرية، وبَدَا جليا شغفه بنشر المسيحية في أماكن مختلفة وبعيدة عن أوروبا، كما اعتبر مهمة نشر المسيحية في صفوف المسلمين تحديا مميزا لخبراته التبشيرية واختبارا حقيقيا لجودة قدراته الإقناعية.

سجل **"كيير"** في كتابه أيضا معلومات عن انتشار وباء الملاريا بالمغرب سنة 1888م، وكيف انتقلت إليه العدوى وألزمه المرض الفراش أربعة وعشرين يوما، وكتب يوميات وتفاصيل علاجه للمغاربة في نفس السنة، والذي وصل عددهم إلى 2425 مريضا، معظمهم كانوا يعانون من أمراض مزمنة؛ وانتقل فيما بعد إلى وصف حيثيات تنقلاته لعلاج المرضى في منازلهم، وكتب مستفيضا عن صلب مهمته، وهي التبشير، حيث أشار إلى بعض أساليبه التبشيرية، وهي استغلاله وقت العمل المخصص للتطبيب والعلاج لتحقيق هدفه، قائلا: "وزعت العديد من الأناجيل و الكتب عن المسيحية على العرب والبربر و الموريسكيين، وأنا متأكد أنهم سيوزعونها على من عجزت إلى الوصول إليهم" [2]. حيث وصلت أعداد الأناجيل المترجمة إلى اللغتين العربية والعبرية الموزعة على المغاربة إلى 3000 إنجيل، منح ثلثها لليهود [3] وبخصوص توزيع الأناجيل على المغاربة ورد فعلهم، قال **"كيير"**: "لابد أن تعود مرة أخرى وتجلب لنا معك الأدوية وأيضا الكتب التي تخبر عن المسيح"[4]،

[1] Ibid, p 87 - 88.

[2] Robert Kerr, Pioneering in Morocco…, op, cit, p 93.

[3] Ibid, p 227 – 228.

[4] Robert Kerr, Pioneering in Morocco…, op, cit, p 243.

وأضاف في هذا الصدد، وهو يتحدث عن نجاح مهمته التبشيرية، قائلا: "حدث ما هو مميز وهو اعتناق شابين مسلمين للمسيحية" [1].

ولكن الطبيب **"كيير"** يتحدث عن عملية توزيع الكتب الدينية والأناجيل على المغاربة، على أنها من متممات التبشير ومن علامات تسيير المهمة، وأغفل أنها لا تعني البتة نجاح العملية التبشيرية كما أن افتخاره باعتناق فردين من المغاربة المسيحية، لا يعني تمسيح كل المغاربة.

أما أحداث سنة 1890م، فقد عطلت مهمة الطبيب **"كيير"** على حد قوله، وشرح قائلا: "وصلت الأوامر بالتخفيض من مدة إقامة المرضى بالمستشفى، ومرد هذا إلى الضعف المادي الذي تعاني منه الكنيسة، وإن هذا الإجراء يعرقل و يعيق مهمة التبشير، لأن الإقامة الطويلة تفيد في إقناع المرضى بالدخول في المسيحية" [2]. وتحدث **"كيير"** أيضا بثقة كبيرة عن قدرته الكبيرة في استغلال ظروف إقامة المرضى في المستشفى لمدة تراوحت بين الأربعة عشر يوما والخمسة أشهر في التبشير. لكن هذه الإقامة الطويلة والإنصات التلقائي للمرضى لم يكن بالضرورة قبولا لما يقوله أو لما يدعو إليه أو حتى دليلا على فهم المغاربة لما يقوله أو استيعابهم له، ورغم اعتماد **"كيير"** على وسائل متنوعة وطرق متعددة في عملية التبشير، كترجمة الأناجيل إلى العربية والعبرية وتوزيعها على المغاربة بالإضافة إلى استغلال أوضاع المرض والعجز لتغيير القناعات واستمالة العقول التي أعياها المرض والفقر والحاجة وغيرها من الوسائل والطرق، فالحال لم يتغير وبقي المغاربة متمسكين بدينهم، رغم أن أعداد المرضى الذين تمت معالجتهم على يدي **"كيير"** قرابة 5092 مريضا سنة 1893م؛ وهو ما فتئ يفتخر بتمسيح اثنين من مجموع 5092 مريضا عالجهم، وهذا دليل قوي على فشل مهمته التبشيرية وإخفاق أحلامه بنشر المسيحية في صفوف المغاربة، ويمكن تفسير فشله بعدة أسباب، لعل أبرزها ضعف لغة المبشر التواصلية إضافة إلى قصر مدة تواصله ولقائه بالمريض المغربي، ناهيك عن التزام المغربي بعدم الخوض في المواضيع الدينية أو السياسية وتركيز المغربي على أخذ العلاج فقط. ولكن مع ذلك نجح الطبيب **"كيير"** في مهمته الإنسانية النبيلة، وهي التطبيب والعلاج نجاحا باهرا، وذلك بالنظر لارتفاع أعداد المرضى المعالجين على يديه من جهة، ونظرا لخدمته المغاربة في ظرفية أوبئة وأمراض فتاكة من جهة أخرى، وهذا النجاح في العمل يُحْسَبُ لصالح **"كيير"** واستغلاله مهنة الطب لأغراض سياسية ودينية لا يسقط عنه صفة الطبيب الناجح المحب لعمله.

وكانت سنة 1893م آخر سنة عمل فيها لصالح البعثة الإنجليزية، حيث أنشأ بعد مغادرتها بعثة جديدة حملت اسم **"بعثة وسط المغرب التبشيرية"** بمدينة مكناس بنفس الأغراض التبشيرية

[1] Ibid, p 95.

[2] Robert Kerr, Pioneering in Morocco…, op, cit, p 180.

وبنفس الأهداف، وختم كتابه بتفاؤل كبير ومتمنيات كثيرة نحو مستقبل التبشير في المغرب، خصوصا بعدما انفرد في عمله بإنشاء وتسيير بعثة مكناس [1]. قال **"كيير"** عن "بعثة وسط المغرب" المؤسسة بمكناس: "يتطلب إنشاء بعثة مكناس توفر 1000 جنيه إسترليني وتطوع ثمانية عمال... فمساحة المغرب كبيرة، وبالتالي فنحن نحتاج إلى محطات تبشيرية جديدة، بمناطق **"بني عساف وزمور زعير"** بالرغم من ضغوط المناخ غير الملائم صيفا لكنه يشجع على العمل في فصل الربيع، وأنا أتأسف لإهمال الكنيسة لمهمة التبشير بالمغرب لمدة طويلة، وأتمنى أن ينتصر التبشير في المغرب حتى تنقشع عنه الظلمات ويسود السلام" [2]. لطالما اعتبر المبشرون، ومن بينهم الطبيب **"روبرت كيير"** أن اعتناق المسيحية بمثابة نور وطاقة إيجابية تعم على كل معتنقيه، ونسي هؤلاء المبشرون أن الحرية الدينية هي طاقة النور الوحيدة التي تدخل الإنسان مرحلة التحرر والثقة والسلام الداخلي. وبعلاقة أخرى بمهمة التبشير، يركز المبشرون على ضرورة مساعدة الكنيسة الكاثوليكية لهم ماديا ومعنويا ولوجستيكيا، لأنها مهمة صعبة وتحتاج إلى أساليب وأدوات تكون مكلفة في أحيان كثيرة كما أن مهمة التبشير إلى دعم سياسي ودبلوماسي يسهل على المبشر حصوله على تراخيص التنقل واقتناء السكن وسهولة التواصل مع الفئات المعنية بتبشيرها. وقد تضمن كتاب الطبيب **"كيير"** كذلك بعض الملحقات خصص أولاها بتقديم بعض النصائح لكل مسافر متوجه للمغرب مفادها ضرورة أخذ الأدوية والعقاقير المضادة للعدوى.

الخاتمة:

كان المغرب في حاجة ملحة إلى المساعدة بكل أنواعها خلال القرن التاسع عشر و خاصة الربع الأخير منه، لأن الظروف حينها اجتمعت لتحويله إلى بلد جريح ينزف بفعل طعنات خسائر الحروب وتكالب الاستعمار والمجاعات وآهات المرضى المتوجعين من آلام الأوبئة والأمراض الخطيرة، لذلك استسلم للتغلغل الأوربي بكل جنسياته وأشكاله، رغم إحساسه بمخاطر هذا التغلغل وبنهايته التي كانت لا محالة هي الاستعمار ومعه الانتهاك العلني لخيراته وحرياته وكرامة سكانه ولقد حاول جاهدا تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية من خلال محاولاته الإصلاحية، لكنها كانت محدودة ومحتشمة، كما أنها لاقت معارضة واسعة من لدن فقهاء المغرب وأعيانه، ولاقت مضايقات ووسائل تعجيزية من الدول الأوربية الإمبريالية، وبالتالي لم تستطع تلك الإصلاحات منحه مناعة قوية وفعالة في وجه الاستعمار الذي اعتبر الضريبة التي تقاضتها الدول الأوربية التي ساعدته على تجاوز محن المجاعات و الأوبئة كمقابل على خدماتها وفضل إنقاذها

[1] Robert Kerr, Pioneering in Morocco…, op, cit, p 250 - 251.

[2] Ibid, p 250 – 251.

لساكنته من المرض والوباء والجوع. إذن فالمغرب كان معذورا من جهة في قراره السماح بدخول المساعدات الطبية والغذائية وغيرها للبلاد، ومن جهة أخرى فهو لم يكن قادرا على مواجهة القوات الأوربية المتنافسة حول استعماره، وبالتالي الدخول في معارك كانت ستقضي عليه نهائيا. أما الطرف الأوربي فالغاية تبرر الوسيلة، ولم يكن يعير اهتماما للمبادئ الإنسانية واحترام رسالة الطب وعدم إقحامه في عالم التبشير وعالم التجسس.

نجح الطب إذن، كوسيلة ضمن وسائل متعددة ومتنوعة في تقصي أوضاع البلاد الداخلية على جميع المستويات وجمع المعلومات الكافية التي أهلت ومهدت لدخول الحماية إلى المغرب سنة 1912 كما ساعد بقوة -لا محالة- في إنجاح دخول الاستعمار، ولكنه فشل فشلا ذريعا في مهمة التبشير، ولم يتمكن من تمسيح المغاربة.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع العربية:

1 ـ البزاز محمد الأمين، عمليات الإغاثة المخزنية خلال مجاعات النصف الثاني من القرن 19م؛ ضمن دراسات تاريخية مهداة إلى الفقيد جرمان عياش، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 32، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1994.

2 ـ الحناشي بلقاسم، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 19م منشورات زغوان، تونس، 1989.

3 ـ رويان بوجمعة، الطب الكولونيالي الفرنسي في المغرب (1912 ـ 1945)، مطابع نت، الرباط، 2013.

4 ـ لغزاوي عبد الإله، مسيرة الطب بالمغرب وازدهارها على عهد العلويين من زمن البداية إلى عشية الحماية، مجلة دعوة الحق، عدد 402، يوليوز 2012، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

5 ـ المكاوي أحمد، الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوربية في المغرب، منشورات الزمن الرباط، 2009.

6 ـ نشاط مصطفى، جوانب من الديموغرافية التاريخية لليهود والنصارى بالمغرب في العصر المريني، مجلة كنانيش، عدد رقم 1، سنة 1999، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة.

المراجع الأجنبية:

1 – Akhmisse Mustapha, Histoire de la médecine au Maroc des origines à l'avènement du Protectorat, Edition de fondation d'Hassan II, Casablanca, 2013.

2 – Ghoti Mohammad, Histoire de la médecine au Maroc le XX siècle (1896-1994), Imprimerie Idéale, Casablanca, 1995.

3 – Harris Walter Burton, Le Maroc disparu, Traduit de l'anglais par Paul Oudinot, Edition Dar el Aman, Rabat, 2011.

4 – Karow Leonhard, Neuf Années au service du Maroc (1900 – 1908), Traduction et Notes de Monique Miège et Jean-Louis Miège, Edition la Porte, Rabat, 1998.

5 – Keene Emily, Histoire de ma vie, Publication de Gremenord, Imprimerie Altopress, Tanger, 2001.

6 – Kerr Robert, Pioneering in Morocco, Edition Printed by hazel, London and Elysburg, 1894.

7 – Moussaoui Driss et autres, Histoire de la médecine au Maroc pendant, 1ère édition, Imprimerie Najah el Jadida, Casablanca, 1995.